

تمظهرات التجريب وانعكاساته في الرواية الجزائرية المعاصرة

رواية شبخ الكاليدوني لمحمد مفلح

Manifestations of Experimentation and Their Reflections in the Contemporary Algerian Novel

"The Ghost of Caledonia" by the Algerian writer Mohamed Meflah.

ط د / وردة إدير * (1)

مخبر التأويل وتحليل الخطاب

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية الجزائر

البريد الإلكتروني: ouarda.idir@univ-bejaia.dz

اسم المشرف: د. يوسف رحيم (2)

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية الجزائر

البريد الإلكتروني: youssef.rahim@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر: 2025/06/07

تاريخ القبول: 2025/05/29

تاريخ الإرسال: 2025/02/05

الملخص:

تتغى هذه الورقة البحثية إلى رصد تمظهرات التجريب في المتن السردي الروائي الجزائري المعاصر، وانعكاساته المختلفة، مع تتبع التحولات الفنية التي عرفها الفن الروائي على مستوى الشكل والمضمون معا، وهذا التحديث الروائي الذي خصص لنفسه مكانة خاصة، وبنية جديدة تتسم بالخرق والتجاوز والابتعاد عن التبعية لكل ما هو كلاسيكي قديم، وكذا كسر النمطية المعتاد عليها، بوعي يعكس من خلاله الروائي واقعه المعاش ومتغيرات عصره وأهم قضاياها، من خلال رواية شبخ الكاليدوني للروائي محمد مفلح، التي تحمل لغزا ملغما وعنوانا رامزا يحمل شحنات دلالية عميقة، يقتحم من خلالها أغوار التاريخ الجزائري المغيب.

الكلمات المفتاحية: التجريب، الرواية المعاصرة، التجريب الروائي، الخرق، التجاوز.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research paper aims to explore the manifestations of experimentation in the narrative texts of contemporary Algerian novels and their various reflections. It traces the artistic transformations that the novelistic art has undergone, both in form and content. This evolution has carved out a unique space characterized by breaches, transgressions, and a departure from classical norms, as well as a move away from conventional stereotypes.

Through a conscious effort, novelists reflect their lived realities, the changes of their time, and its key issues. The novel *The Ghost of Caledonia* by Mohamed Meflah serves as a prominent example, carrying a loaded and symbolic title that encompasses profound connotations and delves into the obscured history of Algeria.

Keywords : Experimentation. Contemporary Novel .Novelistic Experimentation. Breach. Transgression

مقدمة:

تُعتبر الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة فناً سردياً حديثاً نشأ والظهور، مرت بمخاض عسير لتثبت كينونتها الأدبية داخل التربة الفنية العربية، بعدما كان جنساً أدبياً دخيلاً عليها، حيث كانت نشأتها متأخرة نسبياً غير أن تطورها كان سريعاً ومتميزاً، فبعدما كانت الرواية الجزائرية في بداياتها تقليداً للغرب و المشرق كانت السبعينيات من القرن العشرين فترة تشكل التجربة الروائية الجزائرية عن طريق كسر القيود و التقليد والاتباعية، مع الروائي "عبد الحميد بن هدوقة" في روايته "ريح الجنوب" سنة 1971م.

واكبت الرواية المعاصرة تحولات الفرد والمجتمع والأدب على جميع الأصعدة الثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها فتطورت بتطور حالاته، معبرة عن الراهن والواقع المعاش مما جعلها تجرب نماذج وتقنيات جديدة، ولعل هذا ما جعل بعض النقاد والباحثين يطلقون مصطلح الرواية التجريبية على الرواية المعاصرة، لتصبح بذلك مادة خصبة للدراسة وتطبيق النظريات الحديثة. وتأسيساً على هذا، عرف الفن الروائي التجريبي بأنه ذلك الفن الذي يتجاوز المؤلف ويكسر السائد، ويبتعد عن التقنيات الروائية القديمة، لخلق تقنيات جديدة مفتوحة على أفاق كتابية تلغي من خلالها رتبة الكتابة الكلاسيكية التي تعيق مخيلة المبدع، فهي تعد من أكبر تجارب الابداع العربي في العصور الحديثة، فقد جاءت الرواية التجريبية استجابة لتغيرات البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية مواكبة للحدث وما بعدها، ذلك باعتبار الادب ابن تكوينه البيئي لتخلق بذلك حركة ابداعية تجديدية.

فالرواية الجزائرية عمدت إلى التجريب وحاولت تطوير ذاتها والانفتاح على الآخر بعدما كانت مكبلة بقيود القوالب الجاهزة منكبة على نفسها، متجاوزة بذلك المؤلف، كاسرة للنمطية والخطية، لتصبح بذلك متمردة واثرة على كل قديم مستهلك، ساعية إلى التجديد والتوغل في أعماق الفرد والمجتمع، ولقد ظهرت ثلة من الروائيين الجزائريين ممن انفتحوا على التجريب وحاولوا تطوير الرواية وتقنياتها على رأسهم: الروائي عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي، محمد مفلح، كمال قرور، وغيرهم ممن خالف النموذج المعهود، وكسر السائد، أدهش المتلقي وفتح أمامه آفاق أخرى ليصبح بذلك طرفا فعالا في العمل الأدبي.

ولعل هذا ما سنبحث ونتطرق إليه في ورقتنا البحثية هذه محاولين الإجابة عن الاشكالية القائلة: كيف تمظهرت ملامح التجريب في الرواية الجزائرية، شبح الكليدوني لمحمد مفلح أنموذجا؟ ماهي التقنيات الجديدة التي لجأ إليها الروائي في منجزه السردي هذا؟

التجريب وعناصر السرد في رواية شبح الكليدوني

1.2 في مفهوم التجريب وحدوده:

ورد في لسان العرب لابن منظور أن مفهوم التجريب في اللغة مستمد من الفعل " جرب الرجل تجربة: اختبره، والتجربة من المصادر المجموعة قال النابغة: إلى اليوم قد جربت كل التجارب ورجل مجرب: قد بلي ما عنده، وجرب، قد عزف الأمور وجربها، وهو بالفتح، قد جربته الأمور وأحكمته، المجرب: الذي قد جرب في الأمور وعرف ما عنده"¹، ويعرفه الزمخشري قائلا: "رجل مجرب، ذو تجارب، قد جرب وجرب"².

من خلال هذه التعاريف يأخذ التجريب في اللغة معنا واحدا مطلقا في كل العلوم والمجالات ولم يكن مخصص لأمر معين.

إن أول ظهور لمصطلح التجريب كان في مجال العلوم: "فالذي يمارس التجريب إنما يمارس ثنائية الهدم والبناء ويشارك في ارتياد آفاق لم تكشف من بعد"³، وهذا يعني أن التجريب هو إحداث تغيير كسر و ترميم و مغامرة لاكتشاف آفاق جديدة مغايرة لما هو كائن من قبل.

ولعل أول من استخدم مصطلح التجريب في الأدب "اميل زولا" (1840م-1902م)، في كتابه المعروف "الرواية التجريبية"، بحيث ربطه بالرواية، وكان هذا الاستعمال مرتبط بمشروع زولا الذي يهدف إلى تقنين المذهب الطبيعي للوصول إلى فكرته العلمية في الأدب، أو خضوع الأدب للإجراءات العلمية، فقد تحدث في مقالاته الأدبية عن تطبيق المنهج التجريبي على الرواية و الدراما⁴.

التجريب في مفهومه العام والشامل هو الخروج عن النموذج والسائد، وتجاوز كل القوالب القديمة الجاهزة بالتالي "نقض المسلمات الجامدة والتقاليد الثابتة والأعراف الخائفة وصياغة السؤال وممارسة حرية الابداع"⁵، فالمبدع يطرح الأسئلة باحثاً عن أجوبة جديدة مخالفة لسائد، مانحة إياه حرية التعبير عن روح العصر، مما يجعله متفرداً ومتميزاً.

وبناء على ما سبق فإن التجريب في الأدب هو "رفض الأساليب الفنية القديمة ومحاولة البحث عن أسلوب جديد قادر على استيعاب رؤية الفنان المعاصر لعالمه لأن الأشكال القديمة لا تلائم التعبير عن روح العصر وفلسفته"⁶، وبهذا يصبح التجريب كما أشرنا سابقاً عملية هدم وبناء؛ هدم للماضي وتقاليدهِ والثورة عليه، وبناء لعمل فني يتناسب ويتمشى مع العصر ويخدم فلسفته وخلق لعوالم جديدة ومغايرة. تعتبر الرواية الجزائرية المعاصرة بناءً على ما سبق رواية تجريبية، راحت تطبق تقنيات جديدة على متونها السردية ممارسةً بذلك عملية الهدم والبناء من جديد لتخلق نصاً إبداعياً مغايراً ومخالفاً للسائد تعبر عن الراهن والمعاش بكل حرية وإبداع، دون الخضوع للقيود النمطية القديمة، والقوالب الجاهزة التي تثبط المبدع وتكبل مخيلته الإبداعية فتجعله ساكناً لا يعبر عما يكتبه داخلها، بمعنى أنها رواية البوح والنطق بالمسكوت عنه، تخترق الغامض تكشفه وتوضحه، وتتحدث في المحظور.

يعد التجريب الروائي نوع من الوعي الحداثي الذي يتمرد على قواعد الكتابة الجاهزة المستقرة، فهو وعي ضدي، يقف دائماً أمام التكريس لنمط مألوف من الكتابة، ساعياً في الوقت نفسه إلى الخروج عن الخط السائد المألوف، لتصبح بهذا النحو الكتابة حالة من الإبداع الخلاق، هادفاً إلى التجريب الذي يتأبى على أسر الشكلية الضيقة، و ينفث على آفاق رحبة للتخييل الروائي⁷ ؛ بمعنى أن التجريب في الرواية الجزائرية المعاصرة إبداع وخلق لعوالم جديدة تسير التطورات والتغيرات الحاصلة في المجتمع والأدب على حد سواء، مما يجعل الروائي أكثر انفتاحاً واستجابة لتطورات الحاضر.

2.2 عناصر السرد في رواية شبوح الكليدوني

يحضر التجريب في الرواية الجزائرية على مستوى الشكل والمضمون بداية من العنوان إلى آخر حرف يوقعه الروائي في متنه الروائي، وهذا ما يتبين جلياً في رواية شبوح الكليدوني للروائي محمد مفلح بداية من الفاتحة النصية.

01- غرابة العنوان:

يقال أن الكتاب يعرف من عنوانه، بمعنى أن العنوان هو المفتاح الرئيسي لفتح مغالق النص الروائي المعاصر لما يحمله من شحونات دلالية مشفرة؛ ذلك أنه يعد من أهم المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها الرواية فعبه يستطيع المتلقي اكتشاف خبايا النص وفحواه، باعتباره "علامة دالة"⁸ يلجأ إليه

القارئ للولوج إلى غياهب الرواية المعاصرة؛ فهو أول لقاء مادي "فزيقي محسوس بين القارئ و الكاتب، أي أنه بمثابة مدخل النص الكبير وبعبارة أدق فهو بمثابة رسالة لغوية تعرف بهوية النص وتحديد مضمونه"⁹، مفاد ذلك أنه عبارة عن بطاقة تعريف للنص.

تتجلى تجريبية العنوان عند الروائي "محمد مفلح" في روايته "شبح الكاليدوني" انطلاقاً من تلك الغواية التي تمارسها على المتلقي جراء الأثر الذي يتركه ذلك الانزياح الدلالي فيه فيجعله يطرح تساؤلات داخلية متضاربة:

ماذا يقصد بالشبح الكاليدوني؟ هل ذلك الشبح الأسطوري المرعب الذي يدور في مخيلة الفرد؟، أم أنه يرمز إلى أبعد من ذلك ؟

الروائي في صياغته لهذا العنوان في كلمتي "شبح الكاليدوني" يقدم ملخص هذه الرواية، فالشبح هنا يقصد به شبح الجد المنفي إلى كاليدونيا، صاحب السيرة الأسطورية الذي يطارد حفيده "أحمد شعبان"، طوال مساره الروائي، جده الذي تروي عنه الأخبار بأنه رجل علم وأدب ودين خاض غمار المعارك والجهاد في سبيل وطنه الجزائر، ضد الاستعمار الفرنسي، فقد تم نفيه إلى كاليدونيا ليعود بعد حقبة من الزمن بطريقة ذكية وملتوية إلى وطنه، منتحلاً شخصية أحد الدراويش، فطارده أكثر من مرة حتى ألقوا عليه القبض وقتلوه، وقبل موته خلف ثلاث رسائل بمثابة مفاتيح الكنز التاريخي الدفين، الوائد لأسرار المنفيين الجزائريين، فيسعى هذا الحفيد إلى خوض غمار البحث عن تاريخ جده المغيّب، للوصول إلى الحقيقة المسكوت عنها في النهاية.

ورد عنوان الرواية من حيث الناحية التركيبية جملة اسمية (شبح الكاليدوني)، يتلقى فيها المتلقي أول دفقة شعورية تملكه نوع من الخوف (شبح)، اللفظة الناكرة التي لا تشير إلى شيء محدد ما يجلب القارئ تأنها في دوامة من التساؤلات، أي شبح يقصده الروائي؟ لتأتي بعده كلمة الكاليدوني محددة بذلك انتمائه إلى كاليدونيا لتقرب إلى ذهن القارئ المعنى والمقصود بهذا الشبح، فقد ارتضى الروائي أن يصوغ عنوان نصه بهذه الشاكلة، والصورة التركيبية؛ لقوة الدلالة الإسمية هذا من ناحية، ولأنها أشد تمكناً من الذوق السليم والدلالة الفعلية من ناحية أخرى، فاعتمد على الاختصار والمفارقة والكثافة الدلالية.

02- تشكيل الشخصية :

تعتبر الشخصية في العمل الروائي أداة فنية يبدعها المؤلف ويصطنعها لأداء وظيفة يتطلع الأديب إلى رسمها، فيجعل منها كائناً حياً له آثاره و بصماته الجلية في العمل الإبداعي فهي من ابتكار الخيال تؤدي أدواراً مختلفة تعبر فيها عن ذات الكاتب ومكنوناته وإيديولوجيته¹⁰، فالشخصية في المشهد الروائي الجزائري ركيزة أساسية لقوام بنيتها السردية، وعلى أساسها تتدرج إن صح القول وتتطور، فبناء على هذا

يعطيها الدكتور عبد المالك مرتاض تعريفاً يقول فيه : "هي التي تكون واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى، حيث أنها هي التي تصطنع اللغة، و هي التي تثبت أو تستقبل الحوار، وهي التي تتجزأ الحدث والتي تنهض بدور تقديم الصراع... وهي التي تعمر المكان وهي التي تتفاعل مع الزمن فتمنحه معنى جديد"¹¹.

لم تعد الشخصية في الرواية التجريبية نفسها الشخصية في الرواية التقليدية الكلاسيكية التي تعرف بشخصية البطل وهي شخصية مثالية تتصف بكل الصفات الإيجابية، عكس الرواية التجريبية التي تحاول دفع القارئ إلى أن يتعامل معها ومع ما تقدمه، تعاملًا نقديًا لا يقوم على طلب الممهاة بين القارئ والشخصية البطل، وإنما على تأكيد مسافة الاختلاف التي هي مسافة الوعي والنقد، فليست القراءة التي يطابق فيها القارئ بين عالمه وعالم الرواية من منطلق عاطفي يغيب الواقع، إذ ينظر إليه نظرة لا تاريخية تراه بمعزل عن خصوصية كل تجربة و تميزها¹².

تختلف الشخصية في رواية "شبح الكليدوني" عن الشخصية النمطية التقليدية في الرواية الكلاسيكية، بل هي عبارة عن شخصيات ورقية رامزة ذات أبعاد دلالية لكل منها أيديولوجية خاصة على أرض الواقع، إن صح التعبير فهي شخصيات يشعر المتلقي بأنها واقعية تعطي وتشرح حالة شخصية مماثلة لها في الواقع فشخصية "أحمد شعبان" التي كان لها حضور طاغي في الرواية تمثل صورة الفرد المثقف المأزوم داخل مجتمع يسوده التخلف ويمزقه الانهيار والتهيار التاريخي، فنجده يبحث بشغف عن سر لقيه "المنفي".

يقدم لنا الروائي "عبد القوي ولد تواتي ولد محمد المنفي" والد "أحمد شعبان" في صورة الرجل العنيد إيمانه قوي لا يتخلى عن كبريائه ولو جرفه الطوفان يشبه كل أبناء سيدي أحمد الراجي دفين منطقة توات¹³، فلقد أخذ عبد القوي من اسمه نصيباً في قوة إيمانه وتمسكه بالدين الحنيف فقد تميز بالصرامة والمحافظة على الصلاة وقراءة القرآن، له كل السلطة داخل البيت.

تحضر في الرواية والدته كشخصية حاملة "وهي الحاجة صفية بنت شعبان البايك"¹⁴، تحلم دوماً كأم بأن تزوج ابنها وترى أحفاده قبل أن تموت وتعيش حالة قلق كبير من ابنها بسبب رفضه موضوع الزواج كلما عرضت عليه الأمر، وإلى جانب الأم نجد كلا من "عودة، فريدة، فريحة، عجيلة" أخواته ولم يركز الروائي كثيراً على هذه الشخصيات فقد حضرت على هامش المتن الروائي.

يفتح محمد مفلح "شبح الكليدوني" بذكر شخصية "أليمة كناك" أو "حليمة طايب" الفتاة التي ألزمتها السهر إذ قضى جل الليل في حوار مطول لها، على موقع التواصل الاجتماعي، تلك الفتاة المنفية إبان

الثورة الشعبية لشيخ المقراني سنة 1871م، إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة، التي كانت بمثابة منفاه الذي عزم على اللحاق بها مهما كلفه ذلك من الصعوبات.

يستحضر مفلح شخصيات أخرى لتحريك مسار السرد وتفاعلها مع الأحداث، ولتقديم نسيج سردي متكامل البنى لكن لا تظهر بشكل طاعي في العمل الروائي، أدوارها واضحة لا تحمل دلالات مكثفة أمثال: بصافي المايدي وعاشور الزكري معلمين له في المرحلة الابتدائية، كأطراف مساعدة، صليحة حلواجي: عشيقته وهي من سببت له أزمة نفسية وهربت مع رجل آخر، عبد الحليم الوقادي صديقه الذي اغتيل في العشرية السوداء، منصور الخزاني زوج أخته صاحب نفوذ في الدولة، وعقيلة الكاف سكرتيرته العانس، تحلم بالزواج لتنتحر في النهاية، وقادة الشريف الرجل الكريه لدى أحمد شعبان مدير دار الثقافة.

تتمايز هذه الشخصيات، وتنتصر مع توالي الأحداث، بعضها يتفاعل بشكل دائم ومستمر وبعضها الآخر محدود التفاعل، إضافة إلى الشخصيات التي غيبتها التاريخ وهمشها، وظفها الروائي بطريقة جمالية دالة، فكل شخصية من شخصياته تحمل بعدا تاريخيا هام، ولكل منها تاريخا خاص.

03- البناء المتشظي للزمن و كسر الخطية :

يكسر الروائي في نصه الابداعي خطية الزمن المعمول بها سابقا في الرواية التقليدية؛ فأخذ ينتقل بين أزمنة مختلفة يستبق الزمن حيناً و يسترجعه حيناً آخر ويستشرف لمستقبل مجهول مستعمل في ذلك تقنية الاستباق (القفز إلى الأمام) والاسترجاع (العودة إلى الوراء) "الFLASH باك" فهو لا يسير على خطية زمنية واحد بل يقفز بين أزمنة مختلفة، مما يجعل المتلقي في حيرة من أمره يتخيل أحداثاً قد تحدث، ويعود في حين آخر بذاكرته الى الوراء ليتذكر الأحداث السابقة و هكذا يشرك الروائي المتلقي في عمله الإبداعي ويجعله يتفاعل مع الحدث وكأنه عنصر من الرواية وهنا تكمن حداثة التجريب في الرواية المعاصرة .

عمد مفلح إلى توظيف الزمن باعتباره دعامة أساسية في بناء النص الروائي، وهو الزمن التاريخي فقد سرد أحداثاً كثيرة عاشتها الجزائر في فترة الاستعمار، وركز كثيرا على تاريخ المنفيين إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة، وهنا يلتقي الماضي بالحاضر من خلال تكليف الحفيد بالبحث عن ماضي جده، وذكر تفاصيل الرحلة التي قام بها للعثور على قبره، فيصور واقعه المعاش وتفاصيل البحث عن التاريخ المغيّب. اعتمد مفلح أسلوب الاسترجاع الذي ذكرناه سابقا، من خلال تذكره (حكم البايك) الذين قامو بتشريد القبائل و تفريقها ونسوا الدفاع عن الاسلام، فالروائي في هذا الصدد يجمع بين زمنين مختلفين وهو زمن استرجاعي داخلي يضم حادثين: خصام امحمد شعبان مع خاله فاروق البايك الذي من خلاله يذكر

ويستخضر أحداث العهد العثماني، و كأن الزمن هنا إن صح القول شبيه بفرد نلاحقه فنذكره أحيانا ونقبض عليه و يفل في الحين الآخر فنتوه فيه.

04- تعميم المكان وبنائه:

المكان هو الفضاء أو الإطار الذي تدور فيه الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات، فهو "عنصر فاعل ومكون جوهري للرواية، فلم يعد المكان موقعا للحدث ولا بعدا جغرافيا لحركة الشخصيات، ولكنه تجلى في كثير من الأعمال الروائية بطلا رئيسيا ينطلق المؤلف من خلال بلورة أفكاره و توضيح و جهة نظره"¹⁵، فهو الذي يجعل المتلقي يندمج مع أحداث الرواية و يتفاعل معها.

اختار محمد مفلح المكان كعنصر فني في متنه الروائي هذا بوعيه، فلا يمكن اعتباره مجرد فضاء جغرافي فقط، بل أعطى لكل مكان بعدا خاصا به يعبر عن واقع وإيديولوجية معينة، وهي أمكنة واقعية، زواج فيها بين فضائيين مهمين فضاء الريف والمدينة، فتتطلق أحداث الرواية من مدينة غيليزان العتيقة بالضبط، في العمارة الخامسة بحي برمادية، تلك العمارة التي تعيش آخر لحظات حياتها مماثلة لأي كائن حي يعيش مراحل عمرية مختلفة، فقد هرمت وما عادت تصلح لمواجهة مكابد الحياة، فحتى الأماكن التي ينتمي إليها الفرد تلعب دورا كبيرا في إثارة نفسيته والتحكم فيها، فتجعله بذلك محبا للحياة أو كارها لها من خلال ما يكابده من مشقة فيها أو ما يتلقاه من استقرار وراحة فيها.

يمثل فضاء المدرسة، المكان الذي أيقظ فضوله للبحث عن سر لقبه "المنفي"، وأثار تساؤلات عديدة حوله، وما السر الذي يحمله هذا اللقب الذي سيكتشفه لاحقا إنه قبر جده المنفي الى كاليدونيا الجديدة الذي أورثه لأحفاده، فأصبح الجميع يسأل عن سره وسبب هذه التسمية في صفه الدراسي. يقفز الروائي من مكان إلى آخر ذلك ما يجعلها متداخلة ومعممة، تقحم المتلقي في إشكالية البحث والتقصي عن تفاصيل المكان المقصود، فينتقل من فضاء المدينة بعماراتها المتهالكة، وظروفها المعيشة المتكالبة فيها إلى فضاء آخر خارج الوطن، "المنفى" كاليدونيا التي نفى إليها جده، وغالبا ما حدثته عنه صديقه "حليمة طايب" عبر رسائل الفيسبوك، ليشكل بذلك مكانا متخيلا في ذاكرته يحلم للوصول إليه، ليكون منفاه الأخير.

لعل تعميم الأمكنة والمراوغة في بث تفاصيلها، تقنية جمالية أدهشت المتلقي، وأثارت فضوله، وجعلت مخيلته تنشط في رسم هذه الأمكنة والتفاعل معها وكأنه عنصر أساسي في أحداث القصة، فمن فضاء المدينة الكئيب الذي يعيش فيه محمد شعبان التشتت والاستقرار، إلى فضاء الطبيعة، والريف الذي قدمه في صورتين مختلفتين متناقضتين.

الريف بوصفه فضاء الطبيعة الخلابة التي أعادت فيه الروح والحيوية من جديد فيقول: " في سحر الطبيعة الخلابة ظل يتأمل الروابي الخضراء من نافذة السيارة... سلك الرجلان دربا معشوشبا بين شجيرات الضرو والسدر والقندول، شعر بفرح عظيم وهو يفكر في اللحظة التي يدخل فيها دار الشيخ امحمد المنفي"¹⁶. المكان المعتق بالرغبات الجميلة التي تبعث في النفس الراحة والاستقرار وهو في رحلة بحثه عن قبر جده المنفي، هذا القبر المقدس

تتوالى رحلة البحث عن القبر المقدس المجهولة معالمه، فتختلف بذلك الأمكنة والفضاءات وتتغير صورتها ورؤية محمد شعبان لها، فها هو ذا الريف، تتغير صورته فتتحول من ذلك الفضاء الفاضل الذي يسوده الأمن والاستقرار ظاهرا، إلى فضاء ديستوبوي، العالم الذي لم يبق فيه للخير مكان، يحكمه الشر المطلق، فلم يعد ذلك الريف البريء الذي اعتادت النفوس الاستقرار فيه، فقد تعرف امحمد شعبان على مكان جديد" حتى الريف لم يعد بريئا كما كان يعتقد سنوات العشرية السوداء خلفت جراحا عميقة جدا خربت الذاكرة بجرائمها البشعة، وطمست معالمها النيرة... كيف نخرج من هذا النفق بعدما اختفت حياة البراءة في الأرياف؟ انها معضلة حقيقي لم ينتبه قبل اليوم الى ما كان يجري في الريف الذي شهد كل أنواع الرعب كان غارقا عالم آخر كان يشبه سجنا قذرا". القذارة لم تمس الأشخاص والنفوس الشريرة في هذه الحقبة فقط بل تعدت الى أبعد من ذلك، لتلفظ بقذارتها على الأمكنة، و هذا ما يؤكد ما قيل سابقا أن المكان شبيه بالإنسان يعيش فترات عمرية مختلفة، وأزمات داخلية وخارجية متضاربة بين الخير والشر أحيانا، وبين البؤس والسعادة أحيانا أخرى.

1.3 تشكيل الحدث وكسر خطية السرد:

استحضر محمد مفلح في شبح الكليدوني " وقائع مباشرة، واقعية حينئذ، تاريخية الآن، سجل الوقائع... من خلال دوافع الشخصيات، وتكويناتها العرقية والدينية"¹⁷، فقد ذكر محمد مفلح العديدة من الأحداث التي قدم فيها صورة شاملة عن المجتمع الجزائري وقتها بكل تفاصيله، وكأنه يصقل الواقع على ورقة، لتصل أحرفه الى المتلقي موضحة ومبينتا تاريخ هذا الشعب العريق ومن بين الأحداث الأكثر بروزا وذكرنا من طرف الروائي:

✓ تفعيل التاريخ وثورة الأزرق بلحاج في الرواية:

يكشف لنا الروائي سرا مهما عن أحداث ثورة سيدي الأزرق بالحاج المندلعة سنة 1864م، والتي نفي فيها الشيخ أمحمد المنفي ومجاهدون في الثورة إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة من خلال الرسائل الثلاث التي أعطاها وإن صح القول ورثها عبد القوي لابنه محمد شعبان وهي رسائل تعود الى جده المنفي

وطلب منه الاطلاع عليهم فهي ثمينة بالنسبة له وذات قيمة عظيمة ومن خلالها سيتعرف على سر جده المنفي كونها تحتوي على معلومات هامة لا يعرفها المؤرخون ورجال الحكومة.

يقتفي محمد شعبان حروف الرسائل الثلاث يستنتجها ليفهم فحواها فيقوده ذلك في الأخير إلى قبر جده المنفي فهذه الرسائل أشبه بالخريطة التي تقودنا إلى مكان الكنز المدفون، وعبرها تعرفنا على تاريخنا وتاريخ أجدادنا الذين قاوموا الغزاة لنعيش أحرار، فيقول الروائي على لسان عبد القوي: "كان أجدادنا ملوكا أقوياء مهابين في الونشريس والشلف ومينة، أما جدي الشيخ أحمد المنفي فكان عالما ومدرسا شهيرا، ومن قادة ثورة سيدي الأزرق بلحاج شارك في معاركها حتى ألقى عليه القبض في غابة" وادي خلوق " ثم نفي إلى رفقة سيدي عبد العزيز الصغير ورجال المقاومة إلى كاليديونيا الجديدة وورسيكا، ستجد بعض أخباره في الرسائل الثلاث التي عرشه من كاليديونيا الجديدة، والمدينة المنورة أدرسها جيدا واحذر أن تسلمها لأي شخص"¹⁸.

تحدث محمد مفلح أيضا على لسان محمد شعبان من خلال ما قرأه في رسائل جده الثلاث عن ثورة سكان "الكناك"، هؤلاء الأحرار الثائرون على عسكر الفرنسيين، وجرائم بليسييه التي ارتكبتها في حق أولاد رباح فيعرض لنا المشهد الفظيع على لسان جدة محمد شعبان قائلة: " قلت لك بليس... هو بليس السفاح، بليس العدو اللدود الذي أحرق سي خطاب ورجال قبيلة أولاد رباح... أحرق الزوجين مع ألف رجل، ولم ينج أي شخص من أولاد رباح حتى الحيوانات الأليفة لم يرحمها بليس المجرم"¹⁹، بث الروائي تاريخا أليما أخفته السلطات الحكومية والاستعمارية ودحضته وانكرته، لبشاعة ما قامت به في حق الإنسانية فحتى الحيوانات لم تسلم من شرهم.

الارهاب:

قدم الروائي محمد مفلح في الصفحات الأولى من متنه الروائي، صورة لأحداث بائسة في فترة حساسة بعد الاستقلال، فترة العشرية السوداء متذكرا أحداثها و تفاصيلها و كيف أغتيل صديقه "عبد الحليم الوقادي" في فترة العشرية السوداء و التي لم تعد حمراء على حد تعبيره بعدما استتب الأمن في البلاد بقانون المصالحة الوطنية الذي اعتبر حدث هام في تغير مسار الدولة الجزائرية، فهو " لم ينس اللحظة المؤلمة التي حضر فيها جنازته، بالرغم من أجواء الرعب السائدة وقت ذاك في المدينة الجريحة بأخبار مفزعة، رؤوس مقطوعة معلقة على أعمدة، وجثث في واد مينة، و تفجيرات مرعبة في الغابات و الجبال، و... ما اتعس حياة يسودها العنف الهمجى، والضحية عاجز عن مواجهة القتل"²⁰ فقدم مشهدا مخيف ترتجف له القلوب، مصورا كيفية قتل المتقف لتقتل بذلك الحلم مهللة لصحوة الألم والفجيعة

يكمل الروائي مسيرته السردية في سرد الأحداث والوقائع، وإعطاء صورة واضحة عن واقعه المعاش وتفاصيله اليومية، أصبح فيه القتل مباحا فيقول على لسان عبد القوي أب محمد شعبان: " أرأيت ما يجري في سوريا وليبيا واليمن؟ نهاية العالم العربي و بحزن عميق، لاإله إلا الله محمد رسول الله. يقتل الأطفال والنساء والشيوخ - ونحن عرب آخر الزمن- لا نحرك ساكنا. قل لي ما جرى لنا؟ هل ماتت قلوبنا"²¹، يوقظ الروائي في هذا المقطع مخيلتنا لنتخيل ما يحدث من مجاز في هذه البلدان و يحرك عاطفتنا ليجلدنا ضميرنا فننعاطف معهم و نلوم أنفسنا عن هذا التخاذل أين نحن من كل هذا لما تركنا إخواننا العرب يتجرعون الألم و الأسى و يعذبون بصمت بينما نحن نتفرج ولا نحرك ساكنا، فيجيب محمد شعبان قائلا " ماتت قلوبنا ؟ تتمم امحمد شعبان:

أصبحنا على هامش التاريخ. ثم تابع: دخلنا عصرا جديدا ولكننا لم نفهم روحه، تخلفنا عن ركب الأمم المتحضرة، أمريكا تحرك العرب كالدمى.

صاح الحاج عبد القوي وهو يحرك سبخته بنرفزة عصركم هذا "خرطي في خرطي" ياولدي، اللعنة على عصر الجرائم والموبقات"²²، و كأن بطل الرواية يعيش عصرا غير عصره معبرا عن ذلك الاستكثار بعبارات دالة وموحية منه ومن طرف والده، ذلك العصر الذي لا يعيه ولا يستوعه، عصرا لا يحتويه، ولا يستوعب أفكاره ورغباته، وكأنه يبشر بنهاية العالم وقرب يوم القيامة.

الانتحار:

تحدث الروائي عن ظاهرة حساسة جدا، وجديدة حلت على المجتمع الجزائري المحافظ و المتمسك بتعاليم الدين الإسلامي، وهي ظاهرة الانتحار، التي أصبحت في نظر بعض ضعفاء القلوب و الإيمان الحل الأمثل، للهروب و النجاة من تكالبات الواقع القاهر وبؤس هذه الحياة: " في لحظات الملل الرهيب يحن إلى غرفته الكئيبة ملجؤه الوحيد الذي يحميه و لو لبعض الوقت من عالم غامض بدد فيه كل أحلامه الساذجة و مشاريعه الوهمية، إلى عالم احتله هواجس مرعبة دفعته مرات للتفكير في الانتحار"²³.

تحدث الروائي أيضا بطريقة فنية عن حادثة انتحار عقيلة الكاف مصورا ذلك المشهد الكئيب الذي عم مقر الديوان فيقول: " عم مقر الديوان جو كئيب بعد انتحار عقيلة الكاف التي تناولت أدوية مسمومة كما جاء في بعض الجرائد، احتقلت بعيد ميلادها الخامس و الثلاثين...كانت الصدمة قوية لم يتحملها حتى امحمد شعبان. وكيف ينسى اللحظة التي دخل فيها حارس الديوان مكتبه وهو يصيح بفزع: "عقيلة ماتت.. عقيلة ماتت"²⁴؟ فتتطور الأحداث بشكل متشابك في كل مرة إن صح القول يزرع حدث ثانوي وسط الحدث الرئيسي ألا وهو واقعة و قضية نفي جده محمد المنفي إلى كاليدونيا الجديدة، فيمزج بين

الواقع الذي يعايشه أحيانا ويعود في الحين الآخر إلى تاريخ الجزائر العريق، الثورة ومعاناة الثوار والأهل آن ذاك .

✓ الهجرة والهروب الى الخارج:

يوقع الروائي خاتمه النصية بآخر حدث، وهو هجرة امحمد شعبان نحو كاليدونيا الجديدة تاركا خلفه هموم وجراح وطنه الممزق، حالما بمستقبل جميل بعد وفاة والده، وطرد اخته من السكن الوظيفي هي وزوجها المعاق لتحل معهم في زحام تلك الشقة كثيرة الندوب والجراح، فيحمل حقيبتها هاربا إلى تلك الجزيرة التي لا تزال تحمل وشوم أجداده المنفيين ليصبح هو الآخر رهين المنفى تماما مثل جده المنفي، وأبناء العهد الجريح.

2.3 خلخلة اللّغة والبحث في الذاكرة التاريخية:

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية، تستخدم كوسيلة للتواصل والتعبير، لكن استخدامها الحقيقي لا يتم الا بين الفرد والآخرين، فلقد اهتم علم اللغة ببيان العلاقة بين اللغة؛ ذلك باعتبارها ظاهرة اجتماعية واستخدام الأفراد لهذه اللغة وقدرة الإنسان على التكلم، كذلك اعتبارها وسيلة للتفاهم والتواصل والتعبير عن العواطف، ومن خلال هذا المنظور تعتبر اللغة نظام من الرموز والعلامات وهي نشاط مكتسب يتم بواسطة تبادل الافكار والجماعات²⁵

تشكل اللغة بوصفها نظام من العلامات إحدى بؤر التجديد والخرق، ومخالفة المؤلف وتجاوزه في الكتابة السردية الحديثة، فلم تعد وسيلة للتشخيص فحسب، إنّما تطورت إلى أبعد من ذلك لتصبح استراتيجية تنحو إلى مواءمة شكلها مع طرائق الكتابة والموضوعات المطروحة²⁶، فكل موضوع يحتاج إلى لغة خاصة تخدمه وتعبر عنه.

اعتمد الروائي على تشكيل لغوي خاص، خاصة وأنّ لغة الرواية الحديثة " هي التي تجعل منها فنا وتميزها، وتجعل قراءتها عملا ممتعا على صعيد الفكر والروح معا،... فالرواية لا تجذب (القارئ) بعناصر فلسفية، أو تاريخية أو اجتماعية أو فنية فقط، هناك شيء آخر اضافي سحري يجعل العمل الروائي عن طريق عبقرية اللغة أو عن طريق التفجير اللغوي والوهج اللغوي يجعل من الرواية شيئا قائما بحد ذاته كعمل تنتظر إليه وتتأمله وتتعلق به وتتغنى به روحا وفكرا"²⁷، فيعمل الروائي على خرق اللّغة النمطية المعتاد عليها، ويسعى إلى نقل أفكاره وتصورات باستعمال كلمات موحية.

وظف الروائي في متنه اللغة العامية بعد الفصيحة بشكل فني تغري المتلقي، من خلال استحضاره لبعض المقاطع الشعرية الشعبية والأغنية الشعبية وهو يردد بعض المقاطع لأغنية الفنان القدير الشيخ أمحمد العنقي قائلا: "سبحان الله يالطيف...كاين شي ناس من استحاهم...قالوا خاف"²⁸ وهي أغنية

شعبية عريقة تحمل شحنات دلالية عديدة مفادها أن الوضع قد ترفع عن الرفيع بسبب سكوته وحيائه وهذا ما يحدث مؤخرا في هذا العالم الذي وضع الرفيع ورفع الوضع، فأصبح ذو العلم والمعرفة يقمع من طرف أصحاب المعارف والسلطات القمعية، كما استخدم الأمثال الشعبية في مواقف عديدة ومناسبة لمقتضى الحال كقوله: " المكتوب في الجبين ما تمحيه يدين"²⁹، الذي مفاده أن لكل شيء نهاية في هذا الكون البائس، وأنه لا حذر من قدر، وأن ما قدره الله لن يغيره البشر خيرا كان أم شر.

فتقوم اللغة المحلية العامية دوما بتكسير البنية السردية، عند احداثها بنى سردية تفرز فجوات وانعراجات داخل وضعية التلفظ الفصيح مما يجعلها تساهم في تشظية النص السردى، لكن ومع كل هذا فإن هذا التمازج والتداخل بين اللغات يسمح للشخصيات فرصة التعبير عن انشغالاتها ومواقفها المختلفة فتنتقل المواقف بشحناتها الوجدانية الأصلية³⁰.

لجأ الروائي إلى استخدام لغة رامزة موحية، ذات دلالات ايحائية يحاول من خلالها نقل أفكاره وتصويراته ورؤاه المختلفة، مما يخلق نوعا من التشويق والمتعة لدى المتلقي من خلال ذلك التناغم الذي تحققه وهو يسرد بعض الأحداث ويفصلها.

يعتمد على لغة الحوار، حوار الشخصيات بالتالي حوار الأفكار، فكل شخصية فكرة تريد ايصالها وموقف تريد اثباته، ورؤيا ايدولوجيا تدافع عنها، فاللغة رغم ما تحملها من أفكار ودلالات إلا أنها لا تظهر قيمتها إلا من خلال الافصاح عنها والادلاء بها، عن طريق الحوار وتبادلها مع غيره فيتوافق معه أو يتعارض معه ويختلف.

ينوع ويتلاعب الروائي في طرق استخدامه للغة، فينتقل بين اللغة الفصيحة المباشرة إلى اللغة المحلية العامية مستحضرا التراث الفني الشعبى من قصائد وأغاني وأمثال شعبية في شكل أنماط حوارية مختلفة مع شخصيات متعددة ذات مستويات متفاوتة، محدثا بذلك خلخلة لغوية، تنثير القارئ وتجعله يبذل مجهود في كشف خبايا النص وتفكيك شفراته والبحث في المضمير، فينعش ذاكرته التاريخية، وينتقل به بين الأزمنة خاصة وهو يروي أحداث تاريخية من ماض وحاضر الروائى، وهنا تحديدا تتمظهر براعة التجريب لدى محمد مفلح.

خاتمة:

نخلص في ختام هذه الرقعة البحثية إلى جملة من النتائج:
✓ التجريب في مفهومه العام والشامل هو الخروج عن النموذج السائد، وتجاوز كل القوالب القديمة الجاهزة، بالتالي فإن التجريب في الأدب هو رفض الأساليب الفنية القديمة وتجاوزها، مع محاولة البحث عن أساليب جديدة قادرة على استيعاب رؤية الفنان المعاصر لعالمه و التعبير عن واقعه المعاش.

✓ التجريب في الأدب هو عبارة عن عملية هدم وبناء، هدم للماضي وتقاليده، والثورة عليه، وفي مقابل ذلك بناء لعمل فني يتناسب ويتمشى مع العصر ويخدم فلسفته بتالي فهو خلق وابتكار لعوالم جديدة تتنافى مع السائد المعتاد.

✓ التجريب الروائي هو نوع من الوعي الحداثي الذي يتمرد على قواعد الكتابة الجاهزة المستقرة، فهو وعي ضدي يقف دائما أمام التكريس لنمط مألوف من الكتابة، وقد مس كل من الشكل و المضمون بداية من العنوان إلى غاية اخر حرف يوقعه الروائي في متنه، وذلك ما يظهر جليا من خلال التغيرات الطارئة على مستويات الرواية الجزائرية المعاصرة .

✓ تظهر التجريب الروائي لدى محمد مفلح في روايته شبح الكليدوني من خلال غرابة العنوان والبناء المتشظي للزمن وكسر الخطية، كذلك تعتميم المكان وبنائه، وعلى مستوى تشكيل الحدث وكسر خطية السرد اضافة إلى خلخلة اللغة والبحث في الذاكرة التاريخية، لخلق بذلك جنسا روائيا جديدا يتجاوز المألوف ويدهش القارئ.

قائمة المصادر والمراجع:

1. مفلح محمد، 2015، شبح الكليدوني، الجزائر، دار المنتهى، ط01.
2. ابن منظور 2001م، لسان العرب، ج15، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
3. قطوس بسام، 2001، سمياء العنوان، عمان، الأدب العربي، ط01.
4. بن جمعة بشوشة، 2003 م، التجريب وارتحالات السرد الروائي المغاربي، تونس، المغاربية للنشر.
5. علي الحسين الدخيلي حبيب، د ت، دراسة تقنية لظواهر في الشعر العربي، عمان، الأردن، دار حامد للنشر والتوزيع.
6. نعمي حسن، 2013م، بعض التأويل مقاربات في خطابات السرد، بيروت، النادي بالرياض، المركز الثقافي العربي.
7. ماجدة حمود، 1992م، النقد الأدبي الفلسطيني في الشتات، نيقوسيا، عيال للدراسات والنشر.

8. الزمخشري، تح باسلعون السود محمد، 1998م، أساس البلاغة، ج1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.
 9. حليفي شعيب، 2005م، هوية العلامة في العتبات وبناء التأويل، الدار البيضاء، دار الثقافة.
 10. ضويو عبد العزيز، 2014م، التجريب في الرواية العربية المعاصرة، دراسة تحليلية لنصوص حديثة، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط01.
 11. شطاح عبد الله، بيومي مصطفى، وآخرون، مجلة عالم الفكر، التجريب في المتخيل السردى، العدد 171، ص 30-56، 2017.
 12. مرتاض عبد المالك، 1989م، في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد-، بيروت، لبنان، عالم المعرفة.
 13. حفيظ عمر، 1999م، التجريب في كتابات ابراهيم الدروغتي القصصية والروائية، المطبعة المغاربية للطباعة و النشر.
 14. الرماني فارس، 2012م، حلقات التجريب في المسرح، عمان الاردن، دار حامد، ط01.
 15. ماري إلياس، قصاب حسن حنان، 2006م، المعجم المسرحي، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط02.
 16. الباردي محمد، 2000م، انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، دمشق، منشورات اتحاد العرب.
 17. شعبان هيام، 2004م، السرد الروائي في أعمال ابراهيم نصر الله، الأردن، الكندي للنشر و التوزيع.
- الهوامش:
- ¹ - ابن منظور، د ت، لسان العرب، مادة ورث، ج15، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ص15.
 - ² - الزمخشري، 1998، أساس البلاغة، ج1، تح: محمد باسلعون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط01، ص129.
 - ³ - حفيظ عمر، 1999م، التجريب في كتابات ابراهيم الدروغتي القصصية و الروائية، المطبعة المغاربية للطباعة و النشر، دط، ص19
 - ⁴ - شطاح عبد الله، مصطفى بيومي عبد السلام، و آخرون، مجلة عالم الفكر، التجريب في المتخيل السردى، العدد 171 (يناير-مارس 2017)، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب الكويت، 2017، ص30-56.

- 5 - بشوشة بن جمعة، 2003م ، التجريب وارتحالات السرد الروائي المغربي، تونس، المغاربية للنشر، ط01، ص31.
- 6 - الرمانى فارس ، 2012م، حلقات التجريب في المسرح، عمان الاردن، دار حامد، ط01، ص11.
- 7 - مجلة عالم الفكر المرجع السابق، ، ص 32.
- 8 - حليفي شعيب، 2005م، هوية العلامة في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط01، ص 11.
- 9 - قطوس بسام ، 2001، سمياء العنوان، عمان، الأدب العربي، ط01، ص31.
- 10 - ينظر، ماري إلياس، قصاب حسن حنان، المعجم المسرحي، 2006م، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، ط02، ص 269.
- 11 - مرتاض عبد المالك ، 1989م، في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد- بيروت، لبنان، عالم المعرفة، ص91.
- 12 - المرجع السابق، مجلة عالم الفكر، ص83
- 13 - مفلح محمد ، شبح الكليدوني، الجزائر، دار المنتهى، ط01، ص19.
- 14 - المصدر نفسه، ص13.
- 15 - شعبان هيام، 2004م ، السرد الروائي في أعمال ابراهيم نصر الله، الأردن، الكندي للنشر والتوزيع، ط01، ص277.
- 16 - مفلح محمد ، المصدر نفسه، ص89.
- 17 - نعمي حسن ، 2013م، بعض التأويل مقاربات في خطابات السرد، النادي بالرياض، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط01، ص33.
- 18 - المرجع نفسه، ص 32
- 19 - مفلح محمد ، شبح الكليدوني، المصدر السابق، ص59.
- 20 - المصدر نفسه، ص20.
- 21 - المصدر نفسه، ص28.
- 22 - مفلح محمد ، شبح الكليدوني ، ص59.
- 23 - المصدر نفسه، ص 17 .
- 24 - المصدر نفسه، ص 80.

- 25 - ينظر، الدخيلي حبيب علي الحسين، د ت، دراسة تقنية لظواهر في الشعر العربي، عمان، الأردن، دار حامد للنشر والتوزيع، ص56.
- 26 - ينظر، ضويو عبد العزيز ، 2014م، التجريب في الرواية العربية المعاصرة، دراسة تحليلية لنصوص حديثة، الاردن، عالم الكتب الحديث، ط01، ص219.
- 27 - حمود ماجدة، 1992م، النقد الأدبي الفلسطيني في الشتات، نيقوسيا، عيبال للدراسات و النشر، ص91..
- 28 - مفلاح محمد ، شبح الكليدوني، المرجع السابق، ص 19.
- 29 - المصدر نفسه، ص 10
- 30 - ينظر، ضويو عبد العزيز ، التجريب في الرواية العربية المعاصرة، المرجع السابق، ص221.